الأختان

كان لى بنتان ، كبراهما سمراء ، هيفاء ، فاحمة الشعر ، باسمة الثغر ، لها وجنتان ورديتان ، وعينان دعجاوان ، وجسم نحيل . ولدتها أمها سهلة ، فجاءت إلى هذه الدنيا سهلة ، وخرجت منها سهلة . وكانت وهى رضيع كثيرة البكاء ، قليلة النغاء ، تتبرم أمها ببكائها مع أنها البكر ، وتضيق بصراخها ؛ فلما أدركها الفطام هدأت ، واطمأنت ، وألفت المناغاة ، واعتادت الابتسام . فكنت إذا دخلت البيت أقبلت علىّ ، واندفعت إلى ، وأسلمت إبطيها ليدى ، وارتفعت عليهما إلى شفتى ، فأقبلها ولا أشبع من التقبيل ، وأحتضنها وأضغطها على صدرى ، وأناغيها ، وتستغرقنى المناغاة ، حتى تصرفنى عن الطعام والشراب ، فتتبرم أمها كما كانت تتبرم ، ويسخطها نغاؤها كما كانت تسخط على بكائها ، وتضيق بفرحها الذى يصرف أباها عن زاده كما كانت تضيق بترحها .

كانت إذا جرت اندفعت ، وإذا اندفعت تعثرت ، وإذا تعثرت همت فى الحال وهبت ، واندفعت واصطدمت ، وبكت ، ثم لا تلبث أن يعاودها الابتسام . وكانت وهى دون العاشرة مثلها وقد جاوزتها حركة ، نشيطة ؛ لاهية ، عابثة ؛ لا تفارقها عينى ولا حسى ، ويهفو إليها فى الغيبة قلبى ، وأخشى على نحولها من عبث الأيام وعوادى الأسقام ، وأرعاها كما أرعى النبتة الرقيقة الدقيقة ، وأسقيها ماء الحياة من معين حياتى ، فهى الفراشة المتنقلة ، الطروب ، الهابطة ، الطائرة ، التى تجعل فصولك جميعاً ربيعاً ، ولا تذكرك أبداً بخريف الحياة .

وكانت روحية إذا حل الشتاء أطل وجهها النضير المستدير الجميل من فروها الوثير ، فرأيت لعينيها بريقاً يدفئ قلبك ، ولثغرها نوراً خليقاً بالاجتلاء ، ولورد خديها ناراً من وهج ذكاء ، ولطلعتها معنى يشع بالرجاء . كلها حرارة دافئة دافقة ، من نار ونور ، ونشاط وحبور ، قد قدر فى اللوح المسطور أن يكون كله نزيل القبور .

وولدت حورية بعد مولد روحية بعامين اثنين ، وتعسرت ولادتها فترة قدرية ، ولبثت أياماً لا تعرف لها هوية ، ثم أشرقت طلعتها ندية بهية ، وتفتحت

الملامح عن وجه ملئ ، وخلق هنئ ، وهدوء ملحوظ ، فكأنها خبرة الأيام اكتسبت قبل الخبرة ، ونهية المرام اكتملت قبل الحسرة .

وكانت حورية متعة أمها ، أثيرة عندها ، لا تبكى فى الرضاع على نقيض أختها ، إذ وُضعت تواضعت ، وإذا حُملت تهالكت ؛ لا تكلف أمها مشقة ولا ترهقها عسراً ، تحبو إلى غير غاية ، وتقف بلا غاية ؛ وتظل الساعات لا يسمح لها حس ، لا تزعج ولا تنزعج ، إذا أبطأ عليها الرضاع وهمت بالصياح استدركت وأسعفت . فكانت على الجملة الطفلة التى تنشدها الأم : هدوءً واستسلاماً ، ورضا وقناعة ، وسكوتاً يعينها على تصريف ما خلا الطفولة من شئون .

وكبرت حورية واكتنزت وربت بيضاء ، شقراء ، زرقاء العينين عميقتهما ، لا يدرك لعمقهما مع الصفاء قرار ، فريدة تمثل لوناً مرهوباً من ألوان الجمال . تميل إلى الوحدة ، ولا تأنس إلى الأتراب ، وتتجنب الضيف ، وتتعرض للعتاب ، وتعود من كل ذلك بسمعة النافرة ، وسخط النسوة ، حَذِرة متسترة لا يعرفها الرجال .

ونضجت الأختان كبراهما متأخرة ، والصغرى مبكرة ؛ وتبدت فتنتهما قبل الأوان ، وتفتحت الزهرتان عن مختلف الألوان ، وتعددت فيهما الشيات ، وتعارضت السمات . وكنت أعنى بتتبع نشأتهما منذ الصغر ؛ وأرعى نموهما حتى الكبر ، فخشيت كل الخشية على روحية ، ولم ينشغل بالى من نحو حورية . وتعقبت سلوك الأولى فى السن العاتية ، فرضيت عنه واطمأننت إليه ؛ لأنه لم يعلق به غبار ، فهى سريعة الخطى لا يدركها هراء الغوغاء ، وهى ذكية الفؤاد لا يزهيها إطراء ؛ وهى فاضلة لا يميلها إغراء .

وخطبها فى الثامنة عشرة شاب من خريجى الفنون الجميلة ، وشغف بها ، وخالطت فنه ، وأذكته ، وعلق عليها وعلى مستقبله الآمال الكبار .

وجاء الشتاء كعادته لينضر خديها ، ويروى وردتيها ، فرماها على غير عادته بداء عضال ، فازداد ضرام الخدين لكنه حال لونهما ، وشابت حمرة الوجنتين صفرة فيما يليهما ، وكابد جسمها النحيل نحولا فوق نحول ، وطال اعتكافها والتزامها الفراش . وفى ساعة صافية من ساعات النهار وقف بعتبة الحجرة زائر غريب ، لا عهد للسعيد بزيارته ، أو لعله لا يزور إلا السعيد : ملك أبيض الثوب ، ناصع البياض ، مخفوض الجناح ، يمد ذراعيه إلى روحية فى حنو المشتاق ، فتسلمه الروح ! فى عمر الزهرة ، وطور الفكرة ، لم تصبح بعد

حقيقة . وتتجلى السماء من حجرة روحية ، وينشر الملك الجناح وقد ضم إلى صدره روحها الطاهرة قبسا من نور ، أو جذوة من نار ، ما كاد الملك يصعد بها حتى أظلمت الدار ، وخبت النار من الجسم الهامد الممدود .

أيها الدمع ! ما بال العين المتفجرة والسيل الجارى قد كتب على مائه أن يغيض ! ما بال الذهول والطرف الساهى قد منع الماء أن يفيض ! أيقف الجمود كذلك بالباب يطلب فريسته فلا يجد ما يتملكه سوى المحزونين ؟ أتذهب قرة العين فلا تبكيها العين ، ولا تذرف عليها الدمع السخين ؟

أيتها العين تفجرى كما غضت ! أيتها الجيوب انشقى !

و يرتفع الذهول ، و يرتفع الصياح ، وينسكب الدمع الغزير ، إلا حورية فيأبى الذهول إلا أن تكون الضحية ؛ فهى فاغرة فاها ، جاحظة عيناها ، لا حراك بها ، ولا حياة فيها ، أو لا دلالة فيها على الحياة .

وتفتقد حورية بعد ذلك فتلفى فى مخدعها مطرقة ، يزداد انزواؤها ، ويتعاظم انطواؤها ، وقد سارت من قبل هذه السيرة فلم يطمع أحد أن تتبدل سيرتها . لكن ابنة السادسة عشرة توشك اليوم أن تذبل نضرتها ، ويوشك لونها الزاهى أن يغيب ويتولاه الشحوب .

ويقع ما كان يوشك أن يقع فيجف العود ، ويسير فى البيت خيال بعد أن كان المثال ، وتنقلب العاقلة المقلة مكثارة ، والصامتة ثرثارة مهزارة ، والمتئدة متعجلة متسرعة . ويخرج الوقار المطبوع عن طبعه فتبدو الخفة وتنقشع العزلة ، وتقبل حورية على الضيف تسرف فى تحيته ، و يراها الأتراب فيبدهها العجب العجاب ، وتتساءل أحورية هذه أم روحية ؟ أيها الموت الطالع علينا فى ثوب الملك ! لقد اختطفت بدل الروح روحين ، فحملت إحداهما إلى السماء ، وخلفت الأخرى على الأرض شوهاء ، فسلبتنا كل غراء !

أيتها الروح التى فى السماء أدركى الروح التى على الأرض ، فما عاد ينفعها البقاء فى دار الفناء !

كان لى بنتان ، كبراهما توفيت ، وتنكرت الصغرى ، ولم يبق منهما سوى الذكرى . والذكرى تؤلم المحزونين ، وتنفع المؤمنين ، وترفع إلى عليين . فاللهم ألحقنا بالسابقين !

محمود الدسوقى